

وصايا الشيخ للشبان

لجناب العالم العامل الدكتور وربات

(تابع ما قبله)

ان وصايا الحكماء بشأن المال هي اولاً الاتصاف اي ان يعدل الرجل بين الاسراف والتقتير بحيث لا يكون مبتدراً ولا بخيلاً فاذا لم يصر ذلك عادة مستمرة وملكة في النفس فهيات للانسان ان يجمع المال او يتخلص من عذاب الفقر او يتهيباً لصروف الدهر . ومن امثال الحكمة "القليل مع التدبير خير من الكثير مع التبذير" . والثاني الصدق في المعاملة وهو قاعدة النجاح لان الانسان الذي لا يجمله صفة لازمة لاعماله لا يكتسب ثقة الناس واذا باع بالمال كان خاسراً بتعذب ابداً بما يعرفه في نفسه مما اكتسبه بالحرام وبما يعلمه الناس من حقيقة امره . والثالث التصديق على الفقراء وعمل الخير . ومن امثال العامة بهذا الشأن "المركب الذي لا شيء فيه لله يفرق" . وقد تقدم كلام المرهبين القدماء في هذا الصدد . وورد في الثوراة "من يسد اذنيه عن صراخ المسكين فهو ايضاً يصرخ ولا يستجاب" . وفي الانجيل "تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لاني جعت فاطعمتموني عطشت فسقمتوني كنت غريباً فآوتموني عرياناً فكسوتوني" . وجاء في الحديث الشريف "اخلق عيال الله واحب الناس الى الله انفعهم لعيله" . والرابع اجتناب الدين لانه واليهودية سيان . فلا تشتتر الا تقداً ولا تنفق غرماً الا وانت حاسبه وعارف ان في وسلك اتقائه ولا تكن تنفقت اكثر من دخلك . ومن امثال العامة حاسب نفسك تسلم ومن امثال الاسبنيوليين من يشكو النوم الكثير فليقتض وسادة المديون . وقال بعض العرب عاجلت الحديد ونقلت الصخور فلم أر حملاً اثقل من الدين . وقال بعض فضلاء الانكليز الجوع والبرد والرثة واجهاد العمل وازدراء الناس ومظنتهم واقتراؤهم امور مكروهة وشر منها جميعها الدين فابعد عنه كما تبعد عن الشيطان . ثم اياك اياك والقمار الذي صار دأباً للكثيرين تريد ان تريح به المال بلا تعب فإنيك بالخراب والهوان وان تنفع باذى غيرك فيرتد الاذى اليك . وهو عادة اذا تمكنت صارت ملكة فاهرة للانسان توفقه باشد الوثاق وتجعله عبداً ذليلاً لها فابعدوا عنها قبل ان تستولي عليكم وتجذبكم الى هاوية الهلاك . وهي لا تأتي الا بضرر الصحة وافساد الذكر الحسن والبطالة والخراب الكامل عاجلاً او آجلاً

والاقتصاد في الزمان واجب كالاقتصاد في المال لان من يشغل زمانه بالعمل يشغله بالريح ومن يشغله بالكسل والهوى خسر ما يمكن ربحه وخسر ايضا شيئاً كبيراً من حسن الأخلاق فان الانسان يكون بحسب ما يتصرف في الزمان. قال سنكا الفيلسوف الروماني "انا نشكو قصر الزمان ونحن لا نعرف كيف نشغل ما اعتدنا منه وانا نصرف حياتنا في البطالة او بعمل ما لا فائدة منه او في احوال ما يجب علينا . نشكو ابداً قصر العمر ونصرف كنا كنا خالدون في الدنيا ". ومما يعين على الاقتصاد انتظام العمل بحيث يكون لكل ساعة عمل خاص بها . فان الذين اشتهروا بكثرة الاعمال وانقاذها وجودتها من رجال العلم والسياسة والتجارة والصناعة هم الذين جعلوا لكل امر وقتاً فرتبوا زمانهم ونسقوه استدراراً كما لهمام التي كان قضاؤها مستحيلاً لولا نظام العمل الذي نهجوه ثم لا بد ايضاً من الاندماج في العمل اي ان يبادر اليه بالحمّة بلا توان او تردد او نقب لثلاث تقوت الفرصة او يملّ من العمل قبل الشروع فيه قال الشاعر

غفلة المرء عن دواعي المعالي من دواعي تخاف الآمال

والممنوع هنا ليس الذروي والثأفي والاستشارة بل التكاسل والتردد لان الذين ينقلبون في نياتهم ومقاصدهم هم الضعفاء الذين لا يفلحون في الدنيا المشار اليهم في المثل السائر يوم العاجز غدّ . قال بعضهم لا تؤخروا عملاً عن وقتهم فان الوقت الذي تؤخروه اليه عملاً آخر ولست تطيق ازدهام الاعمال لانها اذا ازدهمت دخلها الخلل

وفي الصداقة شأن كبير للانسان خاصة للشاب لانها تأتيه بالفائدة اذا كان العشير اديباً كما انها تأتيه بالضرر والعار اذا كان دنيئاً ثيباً فيحكّم فيك ما يحكّم في صديقك لانه لا يتأتى ان تكون مودة بين اثنين ولا يكتسب الواحد منها شيئاً من الآخر ولذلك قالوا لا تصحب الشرير فان طبيعك يسرق من طبيعته شرّاً وانت لا تعلم وقالوا

عن المرء لا تسأل وسأل عن قريبه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقالوا : واحذر مواخاة الدنيء فإنه يعدي كما يعدي الصحيح الاجرب

وقالوا : حسب الكرم مدلة ومسيبة ان لا يزال الي لشمير يرغب

وبناء على ذلك كانت الوصايا بهذا الشأن ان لا تتخذ خيلاً الأ من كان قياسه في الادب ارفع من قياسك لا نهمل بل تأن في انتخاب صديقك

ان الرجال صناديق مقلّعة وما مفتاحها غير التجاريب

ثم اذا واليت صديقك فلا تقطع حبل وداك الأ لاسر كبير وكن صبوراً لعل الخلاف يزول

وَأَلْقِ الْأَحْبَةَ وَالْإِخْوَانَ إِنْ قَطَعُوا حَبْلَ الْوَدَادِ بِحَبْلِ مِنْكَ مُتَصِلٍ
فَأَعْجِزُ النَّاسَ حَرْثًا ضَاعَ مِنْ يَدِهِ صَدِيقٌ وَتَرَفْلَمُ بَرْدُهُ بِالْحَبْلِ
وَلَيْكِنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَسَاوَاةِ فِي السَّنِ وَرَبِئَةِ الْحَيَاةِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَرْفَعَ مِنْكَ
مَقَامًا أَوْ غَنَى فَرُبَّمَا عَامَلَكَ مَعَامَلَةَ الرَّفِيعِ لِلرُّضِيعِ وَهُوَ ذَلُّكَ وَإِنْ كَانَ ادْنَى مِنْكَ فَرُبَّمَا
عَامَلْتَهُ أَنْتَ بِمَنْزِلِ ذَلِكَ وَهُوَ ذَلُّكَ لَهُ. وَلَا تَكْثُرْ مِنْ مَخَالَطَةِ النَّاسِ فَرُبَّمَا أَصَابَ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ
كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ الْإِنَامِ بِعَجْزٍ إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَرَى لَا يُصَحِّبُ
وَمِنَ الْأَمْثَالِ وَحِدَةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَطْوَلُ النَّاسِ سَفَرًا
مَنْ كَانَتْ فِي طَلَبِ صَدِيقٍ بِرْضَاهُ. وَأَمَّا قَوْلُ الْأَخْبَرِ الصَّدِيقِ اسْمٌ لِنَهْمِ سَمِيٍّ فَمِنْ بَابِ
الْمِبَالَمَةِ أَوْ لَا يَقُولُهُ إِلَّا نَاقِصُ الْمَرْوَةِ الَّذِي يَطْرَحُ أَثْقَالَهُ عَلَى أَصْدِقَائِهِ وَيَكْتَفِيهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا
يَحْتَقِقُ لَهُ وَيَسِيءُ الْمَثَلَ الْقَائِلُ صَبْرَكَ عَلَى الْاِكْتِسَابِ خَيْرٌ مِنْ حَاجَتِكَ إِلَى الْأَصْحَابِ وَالْمَثَلَ
الْآخَرَ إِذَا وَجَدْتَ حَاجَتَكَ فِي السُّوقِ فَلَا تَطْلُبْهَا مِنْ أَخِيكَ
وَكَأَيْبُجِ أَنْ تَتَخَبَّرُوا الْأَصْدِقَاءَ وَلَا تَوَالُوهُمْ إِلَّا إِذَا رَأَيْتُمْ فِيهِمُ الْفَضْلَ وَحَسْنَ الْأَخْلَاقِ
هَكَذَا أَخْبَارُوا الْكُتُبَ الَّتِي تَقْرَأُونَهَا فِي خَيْرِ الْجُلُوسِ إِذَا كَانَتْ مِمَّا يَنْضَمُّنَ حِكْمَةَ الْإِزْمَنَةِ
السَّالِفَةِ وَالْحَاضِرَةِ. لِأَنَّهَا تَزِيدُكُمْ عِلْمًا وَتَهْدِيكُمْ صِرَاطَ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقِيمِ وَتَقْعَلُ فِيكُمْ فِعْلَ
قُدْوَةِ الصَّدِيقِ إِذَا كَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا. وَكَأَيْ تَحْذَرُونَ جَلِيسَ السُّوءِ وَمَعَاشِرَةَ اللَّئِيمِ ابْعُدُوا
عَنِ الْكُتُبِ الَّتِي تَقْسُدُ النَّفْسَ أَوْ الَّتِي لَا خَيْرَ فِي قِرَائَتِهَا لِمَا فِيهَا مِنْ رِكَازَةِ الْبَارَةِ وَالْمَغْضَى.
وَقَدْ كَثُرَتْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ تَرْجُمَةُ الرِّوَايَاتِ وَعَمَدُهَا الْأَحْدَاثُ فَلَا بَدَّ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا
وَإِخْتِيَارِ الْأَدْبِيِّ الْمُنِيدِ مِنْهَا وَتَبَدُّدِ مَا كَانَ مَضْرًا بِالْأَخْلَاقِ. وَإِنِّي لِأَجْفَلٌ كَمَا دَخَلْتُ بَيْتًا
وَرَأَيْتُ بِجَانِبِ الْأَمْرَةِ الرِّوَايَاتِ فِي لُغَاتِ شَتَّى وَأَنَا أَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهَا لَا
يَسْتَحِقُّ الْقِرَاءَةَ وَبَعْضُهَا يَجِبُ أَنْ يُطْرَدَ كَمَا يُطْرَدُ السَّفَهَاءُ فِي الْحَالِ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مَعَ ابْنَاتِنَا
وَبَنَاتِنَا. وَلَا أَسَى لِي إِذَا خَاطَبْتُ الْآنَ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا بَعْضَ اللُّغَاتِ الْإِجْنَبِيَّةِ مَعَ اللُّفَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
فَأَقُولُ لَهُمْ أَعْمَدُوا إِلَى أَفْضَلِ مَا كُتِبَ فِي اللُّغَاتِ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا وَأَقْرَأُوهُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ
إِلَى أَنْ تَرَسَّخَ مَعَانِيهِ فِي أَذْهَانِكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنْهُ مَنَهْجَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ وَفَصَاحَةَ الصِّبَاةِ وَبِلَاغَتِهَا.
وَمِنَ الْحَالِ أَنْ تَطَالَعُوا الْكُتُبَ النَّفِيسَةَ وَتُصَاحِبُوا فِي خُلُوتِكُمْ أَصْحَابَ الْعُقُولِ الرَّفِيعَةِ
وَالْمَعَارِفِ الْكَثِيرَةِ وَالْإِنْشَاءِ الْبَلِيعِ وَلَا تَرْجَبُوا فَائِدَةَ حَقِيقَةٍ وَتَنَالُوا لَذَّةَ عَقْلِيَّةٍ وَقَوْنًا
لِلنَّفْسِ وَرَفْعَةً فِي الْمَقَامِ وَعَوْنًا لِأَعْمَالِ الْحَيَاةِ أَوْ لِاحْتِمَالِ أَسْوَأِهَا. غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ
جَانِبًا عَظِيمًا مِنْ مَطَالَعَتِكُمْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي مَا هُوَ خَاصٌّ بِالْحِرْفَةِ الَّتِي تَخْتَرُفُونَهَا لِكَسْبِ

مباشرتكم حتى تكونوا فيها ماهرين وتناولوا رتبة عالية بين مناظرهم
وليس المراد بكل ما تقدم من المثل على العمل ان تغفلوا جميع الزمان بالكد وان
تغفلوا الرياضة والهوا والتبذره التي تطلبها قوانين الصحة ويرشدكم اليها صوت الطبيعة .
لانه اذا ادى الكسل الى الحرمان فثقله العمل بلا راحة الذي ينتهي الى خسارة الصحة
وهي اذا ذلت لم يبق محل للنجاح بل قد تزول الحياة كلها مع زوالها . فلا تطعموا
بدوام العافية التي هي اعظم النعم ونبيل ما سماه قدماء الرومانيين العقل الصحيح في
الجسد الصحيح الا اذا فرغتم جانباً من كل يوم للرياضة والهوا العقلي لانه كثيراً ما يقع
الانسان في الطل بل قد يموت شهيداً في سبيل العمل الدائم . فاسعوا الى الكفاية من
ذلك كما تسعون الى الكفاية من الطعام والشراب والنوم واللباس والمأوى والنظافة
والهوا التي نهي جميعها مما لا بد منه . ولكن احذروا الافراط فيها والفاسد منها لئلا
تصير دأباً يضلكم عن مهام الحياة او وسيلة لاتباع اهواء النفس الامارة بالسوء . ولا
تحسبوا ان اقوال الحكماء ونصائح الشيوخ ووصايا الدين الادبية تمنع الشاب عن الفرح
والسرور ولذة الحياة اذا كان ذلك جائزاً حلالاً او تلزمه باكثر مما يطيق من الرصانة
والرزانة ألا ترون ان شيخ الحكماء ذلك الامير المصري الذي كتب للشاب منذ خمسة
آلاف سنة قال له كن ابداً طليق الوجه هل رأيت احداً خرج من تابوته . وقال كاتب
سفر الجامعة افرح أيها الشاب في حدثتك وليسرك قلبك في ايام شبابك ان عاش الانسان
سنتين كثيرة فليفرح فيها كلها . وقد كرر معنى هذه العبارة في كتابي سبع مرات . وعلى
هذا لا تكون اقوال الحكماء وكتب الدين مما يعلم الانسان ان يسير في طريق الحياة
كاسف الوجه حاملاً اثقال الغم والهم مع اثقال العلم والحكمة . وانما الذي منعه هو ما
يترهه الشاب سروراً اذا ذهب في طريق الحرام وقد اجمعوا بلا خلاف وبعد خبرة
الوف السنين على ان الانسان لن يجد لذة ثابتة في مخالفة سنن الآداب والحق والبر
والعفة فاذا تداها في عقاباً اكثر او قل كالفصاح الشرعي والألم والمرض والفقر
والغار وتوبيخ الضمير والحساب امام الله في الآخرة

والامور وللاعمال عاقبة فاحش الجزا بفتة واحذرته عن مهل
وقبل نهاية الكلام يجب ان انبهكم الى امر كبير يعينكم في تدبير حياتكم ونجاحكم وهو
ما تسميه العامة بحسن السلوك ويريدون به حسن التدرب في معاشره الناس كجودة
الاخلاق واللطف والملاينة . ويظهر المعنى في الحلال من مقابلة نظر خشن الكلام عابس

الطلعة يبعد الناس عنه برجل لطيف بشوش رفيق العبارة حسن الهيئة يُرحب به حيثما ذهب . ومن جوامع الكلم من لانت كلمته وجبت صحته . ومن حكايات القوم انه كان لرجل من اهل الرجامة والغنى ولد وحيد اراد ان يحسن تربيته فارسله الى شيخ عالم في بلد بعيد ليدرس عليه فلما شب الغلام وتلقى علوم ذلك الزمان رجع الى بيت ابيه ومن شدة فرحه قرع الباب قرعاً عنيقاً فسأل ابيه من هذا فقال الخدام هو ابنك جاء ويديه اجازة العلم قال كلاً بل لا يزال ناقص التهذيب ليمد الي حيث اتى ولا يرجع الا متى احسن اللطف . ولا تمنقروا هذا القول وتظنوا انه يحمل على الناث الذي لا يليق بالرجل بل اذكروا ان محاسن الاخلاق صفة النفس الرفيعة وانها كثيراً ما تفتح اقبالاً عسرة المألجة وتؤيد صدق المثل الجاري باللطف تقتنص الأسود ويحصل كل مقصود . ولذلك اجتهدوا لتربوها في انفسكم . اكرموا الشيوخ واحترموا النساء ولاطفوا الخدم والمساكين كما تلاحظون اصحاب الرجامة والشأن . قيل في رجل انكليزي من كبار القوم انه اکتسب محبة الجميع لانه كان يعامل الفني والفقير وضيوفه الاشراف وخدامه معاملة واحدة في الرقة والتلطف . وقيل في آخر منهم انه رد يوماً تحية عبده اسود فانكر عليه ذلك اصحابه وقالوا هذا غير المألوف فاجاب لعله يكون ولكن هل يسبني الزنجي في اللطف والادب . ولا تزيد بما تقدم ان يتكلف الانسان ويتظاهر بما ليس فيه طبعاً او اكتساباً لانه اذا لم تكن هذه الصفات فيه حقيقة لا يستطيع ان يربيهما في نفسه ولو بالعناء الطويل . واما انتم فاكرموا انفسكم واعزوها ولكن فيكم المروءة التي غايتها ان يستحي الانسان من نفسه ويأنف من الخساسة ويستكر على كل ما يحط شأنه . فهذه ايها الشبان جل وصايا الشيوخ لكم اذا اتبتموها وجدتم شيئاً من الراحة والسعادة والنجاح

قد بلغتكم ما اجمع عليه اصحاب السن والخبرة والعقل والحكمة والصلاح في كل مكان وزمان وبقي لي ان اقول انه باطلاً ما يعظكم الواعظون وينصحكم الناصحون ما لم يكن لكم من انفسكم ما يحكم على امرائكم ويردعكم عن الشر . فاصفوا الى ما في باطنكم من هذا الصوت الذي يصرخ ابداً في اذنيكم ويقول انهضوا بكل ما لكم من القوة والعزم لعمل ما يجب عليكم وابعدوا عن الخطاه واسبابه واذا سقطتم في تجربة او ورطة يمسر النجاة منها فلا تياسوا بل جاهدوا وخلصوا انفسكم لانه

لا ترجع الا انفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر